القراءة الحديثة للنص الديني في الفكر العربي المعاصر (محمد عابد الجابري أنموذجا)

Modern reading of the religious text in contemporary Arab thought (Muhammad Abed Al-Jabri as a model)

أمال بن علي*
جامعة عمار ثليجي،(الأغواط)
مخبر الصحة النفسية جامعة الأغواط
a.benali@lagh-univ.dz

بن عطية عطية
جامعة عمار ثليجي،(الأغواط)
مخبر الصحة النفسية جامعة الأغواط
Aljilart١٩٦٣@gmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/٠١/٢١ تاريخ القبول: ٢٠٢٢/٠٤/٢٧ النشر ٢٠٢٢/٠٥/١٣

ملخص:
عرفت الساحة الفكرية والنقدية العربية ظهور عدة قراءات، تطالب بضرورة مراجعة العقل العربي الإسلامي لمسلماته، ومن بين هاته القراءات التي تناولت النص الديني (القرآن الكريم) نذكر قراءة المفكر محمد عابد الجابري، وتهدف هاته الدراسة للتعرف على منهج تعامل الجابري مع النص القرآني. ومن الاستنتاجات التي توصلنا إليها أن الحاجة اليوم أصبحت ملحة لإعادة النظر في المنظومة الفكرية الإسلامية على أسس مغايرة لما قامت عليها عند القدماء، لأن هذه الأخيرة أضحت غير مؤهلة للإجابة عن التساؤلات التي تطرحها الأوضاع الراهنة. وهو ما دفع المفكرين العرب لاعتناق ما توصلت إليه منجزات الحداثة الغربية على مستوى المنهجية العلمية بغية تحديث الفكر الإسلامي وتحريره من الإنغلاقات التراثية القديمة.

الكلمات المفتاحية: قراءات؛ حديثة؛ نص ديني؛ فكر عربي؛ تراث قديم.

Abstract :
The Arab Intellectual and Critical Area has known the appearance of a number of readings calling for a review of the Islamic Arab mind of its Muslims. One of the conclusions mentiond by the thinker Mohamed Abed Eldjabiri on the Holly Quran is that today there is an urgent need to review the Islamic intellectual system on different grounds from that of the ancients, because the latter have become ineligible to answer the questions posed by the current situation. This led Arab intellectuals to embrace the achievements of Western modernism at the level of scientific methodology in order to modernize Islamic thought and free it from ancient heritage closures.

KeyWords: readings; modern; religious text; Arabic thought; old heritage.

*أمال بن علي، amel٩١benali@gmail.com

المقدمة:

تشغل قضية القراءة الحداثية للنص الديني(القرآن) موقعا بارزا على مستوى مناحي الفكر وتعبيراته، ومجمل ما ينتج اليوم في الفكر العربي من كتابات نقدية حول النص القرآني يشير لبداية حقيقية لتشكل فكر نقدي فلسفي في بلداننا العربية وهو فكر يصاغ حول الإسلام (القرآن)، والتراث العربي الإسلامي، وقد أدرك عديد المفكرين العرب أن الحاجة اليوم أصبحت ملحة لإعادة النظر في المنظومة الفكرية الإسلامية على أسس مغايرة لما قامت عليها عند القدماء، لأن هذه الأخيرة أضحت غير مؤهلة للإجابة عن التساؤلات التي تطرحها الأوضاع الراهنة. وهو ما دفع هؤلاء المفكرين لاعتناق ما توصلت إليه منجزات الحداثة الغربية على مستوى المنهجية العلمية بغية تحديث الفكر الإسلامي وتحريره من الإنغلاقات التراثية القديمة والسياجات العقدية الدغمائية التي أغرقته في التخلف وأعاقته عن الاندماج في المشهد الفكري العالمي.

وقد عمل الجابري وهو أحد هؤلاء المفكرين على تحرير العقل العربي مما هو ميت أو مترسب في موروثه الثقافي، وذلك من خلال تتبع سيرورته التاريخية مستعينا في ذلك بالمقاربة الابستيمولوجية، للكشف عن الآليات المعرفية التي تحكمت ولا تزال في إنتاج المعرفة، فتوصل إلى أن الاشتغال بالآليات ذاتها التي تنتمي لماضي الانحطاط لن تسهم إلا في تكرار الماضي المظلم، وبالتالي فمحور اهتمامه هو تأسيس قراءة للنص المحوري لتراثنا الإسلامي متمثلا في القرآن الكريم وذلك بالاستناد إلى آليات وأدوات جديدة ومعاصرة تتماشى مع المنجزات العلمية والمنهجية. وبناء على هذا سيحاول هذا الموضوع الوقوف على آليات فهم القراءة الحديثة للنص الديني عند محمد عابد الجابري، والكشف عن الأنظمة الداخلية والخلفيات المعرفية الإيديولوجية، وكذلك المرجعيات الفكرية التي وجهت قراءة الجابري الحديثة وولدت تفكيره. من هنا يمكننا طرح الإشكالية التالية: هل استطاع الجابري تجاوز القراءات القديمة للنص الديني من خلال اعتماده على المناهج المعاصرة؟ ثم ما الآليات التفسيرية التي اعتمدها الجابري لقراءة القرآن الكريم؟

التساؤلات الفرعية:

– هل قدم الجابري تعريفا وتفسيراً جديداً للقرآن الكريم يمكن، من خلاله تحقيق وثبة نوعية، تستدرك ما فاتها في الفعل الحضاري لقرون خلت من الزمان؟

– هل في إمكان العقل البشري المتغير والذي يستند في قراءته للنص القرآني إلى آليات فهم معاصرة أن يستوعب ما هو خطاب إلهي متعالي؟

– هل تفكير الجابري أتى بجديد يضاف إلى حقل الإسلاميات؟.

أهداف الدراسة:

– التعرف على خط فكري وفلسفي جاد لمفكر مجدد في مجال الفلسفة العربية المعاصرة.

– التعرف على منهج تعامل الجابري مع النص القرآني.

– الوقوف على الأدوات النقدية والبنائية التي توسل بها المفكر في هذه القراءة.

– وكذلك الوقوف على شبكة المفاهيم التي وظفها في مشروعه، ومدى جرأته على استثمار هذه الآليات الإجرائية في قراءته للنص القرآني؟.

– الوقوف على ردود الأفعال المؤيدة وكذا الناقدة للإنتاج الفكري الضخم الذي أنتجه المفكر المغربي محمد عابد الجابري.

وفيما يخص المنهج الذي طبقناه في دراستنا هذه، فقد ركزنا على المنهج التحليلي؛ كونه يتناسب مع طبيعة الموضوع إذ عمدنا إلى تحليل موقف الجابري من النص الديني وكيفية إعادة قراءته قراءة حداثية، وقد عملنا على تناول هذا التحليل بشكل نقدي، لأننا بصدد توضيح رؤية الجابري للقرآن الكريم كرؤية معاصرة وبين الرؤية التراثية له.

I. الإطار العام لمشروع محمد عابد الجابري الفكري

١. الروافد الفكرية للجابري:

للتعرف على شخصية أي مفكر لابد من الحديث عن السياقات التي تشكل خلالها فكره حتى تتضح الرؤية ونتمكن من تحليله وفهمه، وهو ما يمكننا من الوصول للمرجعيات التي تأسس عليها فكره، ومحمد عابد الجابري كغيره تأثر بالعديد من المفكرين والفلاسفة خلال مساره الفكري وهذا ما سنبينه في دراستنا لهذا العنصر:

– ابن خلدون وتأثيره في فكر الجابري: كان بداية ظهور تأثر محمد عابد الجابري بابن خلدون خلال رسالة الدكتوراه والتي صدرت في ١٩٧٠وعنونت ب" العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي "يقول الجابري: «بعد أكثر من عشر سنوات قضيتها في صحبة مقدمة ابن خلدون، متتبعاً كل ما أمكنني تتبعه من أنواع الدراسات الخلدونية هذه، كنت أشعر أنه لا يزال هناك مجال للبحث ...بل إن كثرة الشروح والتأويلات، واختلافها وتناقضها، قد ولد في نفسي اعتقاداً قوياً بأن الدراسات الخلدونية أصبحت اليوم في حاجة ماسة إلى عملية تصحيح تعود بالفكر الخلدوني إلى إطاره الأصلي، وتحتفظ له بكليته وهويته الحقيقة». (الجابري، ١٩٩٢، صفحة ٧)

وإن أهمية آراء ابن خلدون، ليس في كونها تقدم نظرية كاملة في التاريخ الاسلامي، فمثل هذه النظرية لابد أن تحتاج إلى تكملة أو تعديل.

ثم إن مقدمة ابن خلدون بالنسبة للفكر التاريخي والفلسفي المعاصر تكمن في كونها شهادة ثمينة تبرز العوامل الفاعلة في التجربة الحضارية في الإسلام. (الجابري، ١٩٩٤، صفحة ٢٥٤)

– الرشدية وأثرها في فكر الجابري: من خلال القراءة في كتاب الجابري المعنون "بالرشدية عند الجابري" يتجلى لنا مدى التأثر الكبير الذي أبداه الجابري تجاه فيلسوف قرطبة والفقيه ابن رشد، فإن فلسفة ابن رشد (الرشدية) تشكل حجر الزاوية في فكر الجابري وقام بدراسة مفصلة لسيرة وفكر هذا الفيلسوف، وهو ما يشهد عليه مؤلفه الموسوم ب: "ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص" عالج فيه العديد من المواضيع أظهر من خلالها تأثره بهذا الفيلسوف وبالأخص مشروعه الفلسفي الذي ينطلق من فكرة أساسية هي الفصل بين الفلسفة والدين يقول الجابري:« ومن هنا كانت القطيعة بينهما، وهي قطيعة لا تمس الفكر الفلسفي ولا الفكر الديني، بل الطريقة التي يقرأ بها هذا وذاك... وبدون هذا الفهم، وبدون هذا التواصل سيبقى تراثنا الثقافي، كما كان منذ قرون، تراثا ميتا».(الجابري، ١٩٩٣، صفحة ٢١٣)

المهمة الأساسية في مشروع الجابري هي تحرير الفلسفة من التأويلات الخاطئة وذلك من خلال العودة للأصل وهو قراءة أرسطو ونطبق نفس الأمر فيما تعلق بالدين؛ بحيث نبتعد عن أقوال المتكلمين ونعود للأساس وهو القرآن، فالفارابي اتخذ

الفلسفة كوسيلة لا غاية في حد ذاتها يقول الجابري:« ليس من الممكن دمج الدين في الفلسفة، والفلسفة في الدين فلكل منهما مقدماته وأصوله».(الجابري، ١٩٩٣، صفحة ٤٢)

كذلك الجابري يؤكد من خلال كتابه " ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص" على أننا بحاجة لإعادة مناقشة قضايا من صميم الفكر العربي الإسلامي، كالاجتهاد والفقه قصد فهمها والاستفادة منهما على مستوى واقعنا المعاش يقول الجابري في كتابه ابن رشد سيرة وفكر:« بقي الاهتمام بابن رشد في الفكر العربي الحديث المشدود إلى الأسئلة التي طرحها المستشرقون، ... وجميعها يدور حول الموضوعات التي يطرحها في مؤلفاته الأصلية والتي تتناول قضايا من صميم الفكر العربي الإسلامي، كالاجتهاد في الفقه...فقد بقيت مغيبة مهجورة».(الجابري، ١٩٩٨، صفحة ١٠)

وبناء على سعى ابن رشد للبحث في كيفية قراءة القرآن تحدد تأثر الجابري به، حيث بحث هو الآخر في الدراسات القرآنية فسعى لإعادة قراءة القرآن وذلك من خلال الجزء الأول من كتابه " مدخل إلى القرآن الكريم" أما الجزء الثاني فكان بعنوان " فهم القرآن الحكيم" وهو يرى أن كتابة مقال جديد في المنهج يجب أن تنطلق من نقد المناهج السابقة، وهو ذات الأمر الذي قام به ابن رشد حين نقد الأطروحة السائدة في عصره، أطروحة النصيين الذين حرّموا تأويل النصوص الدينية وعدوا ذلك ضلالة وبدعة.(الجابري، ١٩٩٣، صفحة ٢٣٧)

كذلك الجابري بدأ تأثره بالفكر الغربي وبدت معالمه واضحة في مشروعه كفكرة القطيعة التي وظفها في قراءاته للتراث العربي الإسلامي والنص الديني.

– البنيوية وأثرها على المشروع الجابري: من خلال تتبع أفكار الجابري يتضح لنا التأثر الجلي بالبنيوية وخاصة على مستوى تحليلاتها، فالتحليل البنيوي نجده حاضرا وبقوة على مستوى الدراسات التي قدمها الجابري وبالأخص ما يتعلق بكتبه. والجابري يقصد بالمعالجة البنيوية وجهة النظر التي تعتمدها دراسة التراث كدراسة النصوص كما هي معطاة أي بشكلها الكلي، ويتحقق ذلك من خلال جميع أنواع الفهم المرتبطة بقضايا التراث بين قوسين، ومن خلال هذا سيتم التعامل مع النص كوحدة كلية أي بعيدا عن ما تم وضعه بين قوسين وضمن إطاره الكلي الذي تتحكم فيه جملة من الثوابت والمتغيرات والتي هي الأخرى يتحكم فيها محور واحد وهو ما نطلق عليه اسم الإشكالية يقول الجابري في هذا الصدد:« المعالجة البنيوية تتلخص في معاملة فكر صاحب النص ككل تتحكم فيه ثوابت ويتغني بالتحولات التي يجريها عليها حول محور واحد. يتعلق الأمر أساساً بمحورة فكر صاحب النص حول إشكالية واضحة، قادرة على استيعاب جميع التحولات التي يتحرك بها ومن خلالها فكر صاحب النص، بحيث تجد كل فكرة من أفكاره مكانها الطبيعي ... داخل هذا الكل ... إن العملية ليست سهلة، ولكن الحرص على ربط أفكار صاحب النص بعضها ببعض، والانتباه إلى طريقة– أو طرائق– التعبير لديه، واستحضار مخاطبيه، كل ذلك يجعل المهمة أقل صعوبة وأقرب منالا».(الجابري، ١٩٩٣، صفحة ٢٤)

يتضح لنا مما سبق قوله تركيز الجابري على المعالجة البنيوية باعتبارها تجعلنا نستخلص معنى النص من ذات النص نفسه، أي ننطلق في دراسة التراث كما هي معطاة لنا. وهذا يعني ضرورة وضع كل أنواع الفهم السابقة لقضايا التراث بين قوسين والاقتصار على التعامل مع النصوص كمدونة، ككل تتحكم فيه ثوابت ومتغيرات. هذا يقتضي محورة فكر صاحب النص حول

إشكالية واضحة. إن القاعدة الذهبية حسب الجابري هي تجنب قراءة المعنى قبل قراءة الألفاظ بوصفها عناصر في شبكة من العلاقات وليس بوصفها مفردات مستقلة بمعناها.(الجابري، ١٩٩١، صفحة ٣٢)

– القطيعة الابستيمولوجية وأثرها على المشروع الجابري: إن الاهتمام الجدي بالبحث الابستيمولوجي في البلاد العربية لا يتعدى أوائل السبعينيات من القرن العشرين، وهو ما نجده ماثلا لدى المفكر المغربي محمد عابد الجابري، الذي أفتتن بابستمولوجيا غاستون باشلارGaston Bachelardوخصوصا مفهوم القطيعة الإبستيمولوجية، و مفهوم العائق الابستيمولوجي وهو يعني لديه مجموع الأفكار والتصورات المسبقة أو الخاطئة. ومنه يمكننا القول بأن هاته المفاهيم التي جاء بها باشلار كمفهوم العائق والجدل والقطيعة احتلت مكانة خاصة في فكر الجابري فقام بتبيئة هاته المفاهيم في تراثنا العربي الإسلامي الذي شهد في رأيه منذ القرن السابع تكلس وتقوقع واجترار.(بن علي ، ٢٠١٧، صفحة ١٢٧)

وإن عودة الجابري إلى التراث كانت خدمة لمسألة الحداثة وقد تعامل مع إشكالية العلاقة بين التراث والحداثة كما تعامل فيلسوف القطيعة باشلار مع إشكالية الانفصال في تاريخ العلوم بتوظيفه لمفهوم القطيعة الابستيمولوجية. ويعد هذا المفهوم على حد قول باشلار:« تعبيرا عن فترات الانتقال الكيفي في تطور العلوم».(وقيدي، ١٩٨٠، صفحة ١٣٠)

وبهذا يتبين لنا أن الجابري قام بنقل هذا المفهوم من مجاله العلمي إلى التراث، وأشار الجابري لهذا المفهوم وعرف به في كتابه "نحن والتراث" وذلك في محاولة منه لتطبيقه في قراءة التراث الفلسفي العربي الإسلامي بقصد تكوين قراءة معاصرة لهذا التراث. يعتبر باشلار القطيعة بمثابة قفزات نوعية، أو نقاط تحول تحدث في تاريخ العلم، فالقطيعة إعلان عن ميلاد علم جديد غير مرتبط بما قبل تاريخه. فلا وجود لأي اتصال بين القديم والجديد وكل منهما غريب عن الآخر. (شعبان، ١٩٩٣، صفحة ١٤٨)

القطيعة إذن هي قطيعة احتواء وتضمن، أي الجديد يتضمن السابق عنه لأنه أشمل ولا ينفيه، ومنه فقد استعار الجابري هاته المفاهيم ليطبقها في التراث العربي الإسلامي بغرض الخروج من التراجع الذي يقبع فيه تراثنا العربي الإسلامي، وبلوغ حداثة عقلانية متنورة، وبالتالي فطريق الحداثة عند الجابري لا يلزم أن يكون استكراهيا بل طريقا حواريا نقديا، الحوار مع التراث ونقده، فلا يمكن أن نعطي ظهرانينا للتراث ونضعه في المتاحف ونتفرج عليه، هذا ما ترفضه القطيعة الإبستيمولوجية التي يدعو إليها الجابري. إنها قطيعة لا تلغي التراث، بقدر ما تحييه وتعيد قراءته وتحاول أن تجعله معاصرا لنا ولنفسه في ذات الوقت ومن هذا فإن القطيعة تسعى إلى الاستقلال التاريخي للمجتمع العربي الإسلامي أي التحرر، إن القطيعة مع التراث لا تعني إلغاؤه لأن الإلغاء هو إلغاء لمطامح الأمة. (الجابري، ١٩٩٣، الصفحات ٢٠-٢١)

الجابري يقول نحن لا ندعو إذن إلى القطيعة مع التراث بمعناها اللغوي الدارج...كلا إن ما ندعو إليه هو: التخلي عن الفهم التراثي للتراث أي التحرر من الرواسب التراثية في فهمنا لو وعلى رأسها (القياس النحوي، والفقهي، والكلامي) القطيعة التي يدعو إليها الجابري ليست القطيعة مع التراث بل مع نوع من العلاقة مع التراث، القطيعة التي تحولنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث.(الجابري، ١٩٩٣، صفحة ٢١)

إن هذا القول هو ما يتجلى لنا في وضوح من خلال قول باشلار:« بأنه إذا كان هنالك نفي للسابق بفضل اللاحق فإن هذا النفي يكون جدليا بحيث لا يعني الانفصال أو الترك المطلق بل يعني الاحتواء».(وقيدي، ١٩٨٠، صفحة ١٣٨)

إذا مما سبق نتوصل إلى أن الجابري استعار مفاهيم القطيعة الابستيمولوجية وحاول توظيفها في التراث العربي الإسلامي. كما يمكننا القول بأنه إذا اعتبرت القطيعة المعرفية عند باشلار عامة، فإن الجابري قطيعته خاصة بالتراث العربي الإسلامي.

– تأثير شلاير ماخر وهيغل على فكر الجابري:القارئ للمشروع الجابري يلحظ التأثر الكبير بالفيلسوفين شلايرماخرSchleiermacher وهيجلFriedrich Hegel شلاير ما خر يظهر تأثر الجابري به من خلال الجزء الثاني من كتابه " القرآن مسار الكون والتكوين" فقد استلهم نظرية شلاير ماخر والتي تركز على التأويل اللغوي والتأويل السيكولوجي، ويعني علاقة المؤلف للوثيقة بالنص، فالنص مرتبط بالمؤلف وبنفسيته وتجربته...بمعنى أنك تعيش الحالة النفسية للمؤلف وتعيد ترتيب نصوصه من بدايتها لنهايتها... والبحث هنا ليس عن الدوافع أو الأسباب، فهو ليس بحثا نفسيا وإنما هو بحث عن تجربة الكاتب وأفكاره وقصده في النص.(الحسن، ٢٠١١، صفحة ٦٤)

الجابري سعى للبحث عن الظروف التي تكون فيها القرآن لاستعمالها لفهم القرآن اعتمادا على السياق الذي تشكل فيه، وبالأخص مرحلة التدوين. كما نجد الجابري متأثرا بهيجل فالجابري حسب عبد السلام بن عبد العالي يستمد مقومات فكره من هيجل، كمفهومه للزمان، والاتصال والانفصال، للمعرفة ووظائفها، لجدلية الأنا والآخر، وللتاريخ وتطوره، كل ذلك ولا شك يجعلنا نشعر أننا أمام تلميذ وفي لهيجل ودائرته. (بن عبد العالي، ٢٠١١، صفحة ٦١)

ولأنه لا يسعنا استحضار كل من تأثر بهم الجابري فاقتصرنا على ذكر بعض المرجعيات الفكرية كابن تيمية خصوصا ما تعلق بقاعدة "القرآن يفسر بعضه بعضا" وهو يعتبرها المدخل لجعل القرآن معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا، كذلك تأثر بالزمخشري والطبري واعتبارهما بحق عمدة المفسرين وأن باقي التفاسير مجرد تكرار، أيضا تأثر بالشاطبي خاصة ما يتعلق بالمكي والمدني من السور.

٢. الإنتاج الفكري لمحمد عابد الجابري

بداية لابد لنا من الإشارة إلى أن الإنتاج الفكر للجابري يقسم من حيث مجالات اهتمامها أو كما سماه الجابري نفسه فضاءات وهي كالآتي: فضاء قراءة التراث، وفضاء مناقشة قضايا الفكر العربي المعاصر، وأيضا فضاء المستجدات في الفكر العالمي وكذلك فضاء الشأن الخاص:

١– فضاء قراءة التراث: حوى هذا العنصر العديد من مؤلفات الجابري وهي: كتاب العصبية والدولة ١٩٧١، ونحن والتراث ١٩٨٠، والرباعية النقدية والتي تمثل مقدمة مشروعه وهي: تكوين العقل العربي١٩٨٤، بنية العقل العربي ١٩٨٦، والعقل السياسي العربي ١٩٩٠، والعقل الأخلاقي العربي ٢٠٠١، بالإضافة لكتابه مدخل للقرآن الكريم ٢٠٠٦، وفهم القرآن الحكيم ٢٠٠٧، أما القسم الثاني فكان بعنوان:

٢–فضاء مناقشة قضايا الفكر العربي المعاصر: يتضمن هذا الفضاء العديد من المؤلفات وهي: الخطاب العربي المعاصر(١٩٨٢)، إشكاليات الفكر العربي المعاصر(١٩٨٨)، المشروع النهضوي العربي(١٩٩٦)، وجهة نظر: نحو إعادة بناء الفكر العربي المعاصر(١٩٩٨)، وبالنسبة للفضاء الثالث فيحمل عنوان:

٣– فضاء المستجدات في الفكر العالمي: يتضمن هذا الفضاء: الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والهوية...إلخ ومن جملة المؤلفات التي رصدها تحت هذا الفضاء كتاب: المسألة الثقافية (١٩٩٤)، وكتاب المسألة والهوية (١٩٩٥)، وكتاب الديمقراطية وحقوق الإنسان (١٩٩٨)، أما الفضاء الرابع والأخير فهو كالآتي:

٤– فضاء الشأن المغربي: أيضا هذا الفضاء يحوي العديد من المؤلفات وهي: أضواء على مشكل التعليم بالمغرب (١٩٧٣)، من أجل رؤية جديدة لبعض مشكلتنا الفكرية والتربوية (١٩٧٧)، المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية...الحداثة والتنمية (١٩٨٨).(الشيخ، ٢٠١١، الصفحات ١٣-١٤)

٣. القراءة الحداثية للتراث عند الجابري

يعدّ التراث من أهمّ المفاهيم والقضايا التي انشغل بها الفكر العربيّ الحديث والمعاصر منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وما يزال النقاش حول التراث مستمرّاً إلى يومنا هذا، من خلال طرح مفاهيمه ومصطلحاته الإجرائيّة، ورصد قضاياه الفكريّة والمنهجيّة، وإبراز إشكاليّاته العويصة رؤيةً وموضوعاً ومنهجاً. ونظراً لأهميته في الحفاظ على الهويّة والذات والكينونة الوجوديّة، وكذلك نظراً لبُعده الاستراتيجي في تحديد الانطلاقة الصحيحة من أجل تحقيق المشروع المستقبليّ، وذلك بتشييد حداثةٍ عقلانيّةٍ متنوِّرةٍ، و الآتي أنه لن يتحقّق إلّا بالعودة إلى التراث العربيّ الإسلاميّ لغربلته من جديد، ونقد مواقفه فهماً وتفسيراً، بُغية استكشاف المواقف الإيديولوجيّة الإيجابيّة لمواجهة الاستعمار من جهة، ومحاربة التخلّف من جهةٍ ثانيةٍ، وتقويض النزعة المركزيّة الأوروبيّة من جهةٍ ثالثة. وإن الأمة الإسلامية بل جميع الأمم تعاني اليوم والانحطاط والتخلف تقريبا على جميع الأصعدة وإذا كنا نريد الخروج من التخلف الذي نقبع فيه عليا بالتفاعل مع النص الديني (القرآن).

بناء على ما سبق التراث عند الجابري يعني الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني، هو البطانة الإيديولوجية والوجدانية التي تكتسي داخل وعينا طابع العام والمطلق وتنزع عنه طابع النسبية والتاريخية، التراث هو خزان للأفكار والرؤى والتصورات تأخذ منه الأمة ما يفيدها في حاضرها أو ما هو قابل لأن يعين على الحركة والتقدم. (الجابري، ١٩٩١، الصفحات ٢٣-٢٤)

وللحديث أكثر حول التراث يمكننا القول بأنه تحكمه ثلاث طرائق رئيسية، كما حددها الجابري وهي كالآتي:

١,٣ طرائق التعامل مع التراث:

١– الطريقة الأولى التقليدية: وهذه الصورة ترتكز على التعامل التراثي التقليدي مع التراث، كما يظهر ذلك جليا عند العلماء المتخرجين من المعاهد الأصيلة، كجامع القرويين بالمغرب، والأزهر بمصر، والزيتونة بتونس. ويتسم هذا التعامل مع ذلك التراث بالرؤية السلفية الماضوية، وغياب الروح النقدية العلمية، وفقدان النظرة التاريخية. (الجابري، ١٩٩١، صفحة ٢٦)

٢–الطريقة الليبيرالية: كما يظهر ذلك جليا لدى المستشرقين أو المستعربين الغربيين من جهة، أو الدارسين العرب التابعين لهم من جهة أخرى، تمتاز هذه الصورة بتكريس النزعة الاستعمارية، ومعاداة العقلية السامية، وترجيح كفة العقلية الآرية، وقد انطلق هؤلاء من مناهج فيلولوجية أو تاريخية أو ذاتية. (الجابري، ١٩٩١، صفحة ٢٦)

٣–الطريقة الماركسية: التي تعتمد على المادية التاريخية في تعاملها مع التراث، وهي صورة إيديولوجية لمفهوم التراث، وإن المادية التاريخية التي تحاول هذه الصورة اعتمادها، كمنهج مطبق لا كمنهج للتطبيق، مؤطرة هي الأخرى داخل إطار المركزية الأوروبية.

مما سبق يتضح لنا أن الجابري نقد القراءات السابقة للتراث، وطريقة تعاملها معه. فالفكر العربي المعاصر في مجمله فكر لا تاريخي يفتقد للحد الأدنى من الموضوعية، ولذلك كانت قراءته للتراث سلفية تنزه الماضي وتقدسه وتستمد منه الحلول الجاهزة لمشاكل الحاضر. وإذا كان هذا ينطبق بوضوح كامل على التيار الديني فهو ينطبق أيضا على التيارات الأخرى باعتبار أن لكل منها سلفاً يتكأ عليه. هكذا يقتبس العرب جميعا نهضتهم من نوع الماضي، إما الماضي العربي الإسلامي و إما الماضي- الحاضر الأوروبي، وإما التجربة الروسية أو الصينية... إنه النشاط الذهني الآلي الذي يبحث عن الحلول الجاهزة لكل المشاكل المستجدة في أصل ما.(الجابري، ١٩٩٣، صفحة ١٩)

هذا النشاط الذهني جزء ولو أنه أساسي من كل: إنه جزء من بنية العقل العربي الذي يتعين فحصه بدقة ونقده بكل صرامة قبل الدعوة لتحديثه. انه لن يتجدد إلا على أنقاض القديم، إلا انطلاقا من نقد شامل وعميق. ومن هنا يتبادر لأذهاننا سؤال وهو: كيف تعامل الجابري مع التراث العربي الإسلامي؟ ثم ما الخطوات الإجرائية التي اتبعها في قراءته الحداثية للتراث؟

٢,٣ خطوات المنهج في قراءة التراث عند الجابري:

١- ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث: القطيعة التي يدعو إليها الجابري ليست القطيعة مع التراث بل مع نوع من العلاقة مع التراث القطيعة التي تحولنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث. والجابري يدعوا للتحرر من الرواسب التراثية في عملية فهمنا للتراث، أي التخلي عن الفهم التراثي للتراث، وعلى رأس هذه الرواسب القياس النحوي والفقهي والكلامي. الجابري يدعونا لاحتواء التراث بدل أن يحتوينا ويقول في هذا الصدد:« اندماج الذات في التراث شيء، واندماج التراث في الذات شيء آخر. أن يحتوينا التراث شيء وأن نحتوي التراث شيء آخر...». (الجابري، ١٩٩٣، الصفحات ٢٠-٢١)

٢- فصل المقروء عن القارئ... مشكلة الموضوعية:

يرى الجابري أن فصل الذات عن التراث عملية ضرورية، إنها الخطوة الأولى نحو الموضوعية، القائمة بين أجزائه، بالخطوة الثانية على طريق الموضوعية، الخطوة التي تعيد الانطلاق من فصل الموضوع عن الذات فصلا يجعله يعيد هو الآخر استقلاله وشخصيته، هويته وتاريخيته. تحدد ثلاث عمليات في هذه الخطوة هي: المعالجة البنيوية، والتحليل التاريخي، والطرح الإيديولوجي.(الجابري، ١٩٩٣، الصفحات ٢٣-٢٤)

إن المقروء هو تراثنا نحن، وهو جزء منا كما يقول الجابري أخرجناه منا لا لنلقي به بعيدا عنا ... فصلناه عنا من أجل أن نعيده إلينا في صورة مغايرة وبعلاقات جديدة، من أجل أن نجعله معاصرا لنا. فكيف يمكننا إعادة وصله بنا؟

٣- وصل القارئ بالمقروء ... مشكل الاستمرارية: يرى الجابري أن تعامل المفكر العربي مع التراث يطرح مشكلين متلازمين هما: مشكل الموضوعية بمعنى كيف يمكن فصل الذات عن الموضوع في التعامل مع تراثنا العربي الإسلامي، وثانيا مشكل الاستمرارية بمعنى أن التراث ما زال مستمرا في ثقافتنا المعاصرة، وما زال يحتاج إلى قراءات مغايرة لفهمه. والجابري يتساءل لماذا الاستمرارية؟ ويجيب: لأن الأمر يتعلق بتراثنا نحن لا تراث غيرنا علينا بالانتظام النقدي في تراثنا. (الجابري، ١٩٩٣، صفحة ٢٥)

II. القراءة الحديثة للنص الديني في الفكر العربي المعاصر محمد عابد الجابري أنموذجا

١. قراءة محمد عابد الجابري للنص الديني:

يعدُّ محمد عابد الجابري أحد أهم المفكرين العرب المعاصرين الذين قدموا قراءة حديثة للقرآن، وتجدر بنا الإشارة إلى أن الجابري بعد استكمال مشروعه النقدي في نقد العقل العربي غير وجهته صوب دراسة القرآن نفسه عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو المنعطف الذي اعتبرناه أهم السياقات المعرفية المُنشِئَة للقراءة الحديثة للقرآن، حيث إنّ أعمال الجابري هي قراءة في التراث معرفيًّا عبر المنهجيات الحديثة (البنيوية والتاريخية والطرح الإيديولوجي)، وهي دراسة لا تَغَيًّا دراسة مضمون التراث الإسلامي بل تطال إبستيماته وأبنيته المعرفية، فهي دراسة في نقد (العقل العربي) المُؤسِّس لكلّ مساحات المعرفة، وإنّ الجابري بنقده المعرفي للعقل وبتحويله إياه إلى (مفهوم)، قد فتح الباب واسعًا أمام القراءة المعرفية للتراث. وكما أشرنا آنفا عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، خاض الجابري في الدراسات القرآنية فكان أن ألف كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم".(الجابري، ٢٠٠٦، الصفحات ١٤-٢٨)

والجابري يقرر بأنه سيخضع القرآن لذات المنهجية التي أخضع لها نقد العقل العربي، ويعلن بأن قراءته تقتضي جعل المقروء (النص القرآني) معاصرا لنا ولنفسه في ذات الوقت، لكن الجابري يرى بأن المعاصرة لا تتحقق إلا من خلال ربط النص بواقعه الذي أنتج فيه. (الجابري، ٢٠٠٦، الصفحات ٢٧-٢٩)

ومقصود الجابري من جعل القرآن معاصراً لنفسه، بمعنى أن يكون متناسقاً والأحداث التي أحاطت بنزوله ساعة نزوله، أما المعاصرة بالنسبة للبعض، أن يتم استحضار القرآن باعتباره كتاباً سماوياً يتضمن منظومة أخلاقية متكاملة، لكنّ الجابري لا يخرج في منهجه عن حدود كون القرآن نصاً فوق التراث علمياً، لكنه يقبل سؤال الذات العارفة التي تباشره، وهو ما يقتضي تجاوز الكثير من الآراء والتفسيرات التي تناولها السابقون. (إكين، بورشاشن، و جكيب، ٢٠١٥، صفحة ٦)

فقد أفصح الجابري، في بداية مؤلفه "مدخل للقرآن الكريم"، أنه سيخوض في منحى قراءة النص الديني، وأكد أنه سيحرص على إعادة دراسة الأسئلة القديمة، التي طرحت حول علوم القرآن في كتب التراث، وما يتولد عنها من تساؤلات أخرى معاصرة:« إننا لا نَعِدُ القارئ بأكثر من اطلاعه على أجوبة غير قطعية ولا نهائية، عن أسئلة تولدت لدينا من خلال اطلاعنا على الأسئلة التي طرحها كثير من القدماء، حول ما نسميه (الظاهرة القرآنية)». (الجابري، ٢٠٠٦، صفحة ٢٣)

وعند الاطلاع على كتاب الجابري نجده لم يتجاوز عتبة النص، كما ناقش الجابري فيه العديد من القضايا وهي كالتالي:

- ربط عقيدة التوحيد الإسلامية بجذور مسيحية آريوسية.
- اعتماد الجابري على مبدأ الشك في المسلمات مثلما ذهب إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس أميا محاولا دحض الآيات والأحاديث الدالة على ذلك يقول الجابري في كتابه "مدخل إلى القرآن": «والواقع أن لفظ (أمي) لفظ معرَّب، لا أصل له في اللغة العربية ..؟!». (الجابري، ٢٠٠٦، صفحة ٨٣)

إذا يتبين لنا أن الجابري يشكك في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم وزعم أنه كان عالما بالقراءة والكتابة وقال:« عندما نبهت في فقرة سابقة إلى خلو اللغة من أصل للفظ "أمي"وما اشتق منه"أمية وأميون" وقلت، إن هذه الكلمة معرّبة، وأن أصلها يرجع إلى لفظ:"الأمم" الذي أطلقه اليهود على غيرهم ممن ليس لهم كتاب منزل...».(الجابري، ٢٠٠٦، صفحة ٩٤)

- أيضا الجابري شكك في صحة تمامية النص القرآني وذلك بطرحه لمسألة الزيادة والنقصان في المصحف دون أن يخرج بأي نتيجة.(الجابري، ٢٠٠٦، الصفحات ٢١١-٢١٢-٢١٣)

– كذلك يذكر الجابري في كتابه أن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الوحيدة هي القرآن الكريم، وما حصل معه من معجزات ملموسة لا أساس له في محاولة لإدخالها في دائرة العقل جاعلا من حادثة نزول الوحي على الرسول عن طريق الملك جبريل عليه السلام مجرد منام لا حقيقة، أيضا حادثة انشقاق القمر خسوفا، والإسراء والمعراج مناما لا يقظة.(الجابري، ٢٠٠٦، الصفحات ١٨٧-١٨٨)

كان هذا عن كتابه الأول حول القرآن الكريم وأبرز القضايا التي تناولها، أما ما يخص مؤلفه المكون من ثلاث أجزاء والمعنون ب "فهم القرآن الكريم" اعتمد فيه الجابري على ترتيب النزول في فهم النص لأجل التعرف على المسار التكويني للنص القرآني باعتماد مطابقته على مسار الدعوة المحمدية. (الجابري، ٢٠٠٨، صفحة ١٠)

إذا مما سبق قوله يتضح أن الجابري في قراءته الحديثة للقرآن اهتم بتحديد طبيعة القول الديني كقول عقلاني؛ فالقرآن وفقًا للجابري هو نصّ عقلاني، بل نصّ يهتم لتكريس العقلانية وإدانة ومواجهة اللاعقلانية. (الجابري، ٢٠٠٩، صفحة ١٣٦)

الجابري يسعى لاقتراح قراءة جديدة ترقى لمستوى القطيعة مع القراءة التراثية المتحكمة في الخطاب القرآني، وللتحرر من التأويلات الزائفة التي ما يزال كثير منها "يحكم الفكر الديني عندنا"، وربط كثير من التفسيرات والاجتهادات بزمانها ومكانها حتى يتأتى لنا الوصل بيننا نحن في عصرنا وبين النص نفسه.

يتبين لنا بهذا العمل أن الجابري يسعى لأن يخلص النص القرآني من تأويلات، يظنها محكومة بحسابات سياسية وأيديولوجية، ويقترح قراءة جديدة محايثة للنص القرآني في ذاته ولذاته في خطوة أولى (المنهج البنيوي) ثم يفتحه في خطوة ثانية على محيطه (ترتيب النزول)، ومراعاة معهود العرب اللغوي والحضاري(المقاربة التاريخية). والقراءة الجديدة، عند الجابري، كما ورد في بنية العقل العربي، لا تعني العودة إلى البحث عن قواعد النص القرآني، ولكن هذه المرة تعني، كما ورد في نحن والتراث:« بناء فهم جديد للدين، عقيدة وشريعة، انطلاقا من الأصول مباشرة، والعمل على تحيينه، أي جعله معاصراً لنا وأساساً لنهضتنا وانطلاقتنا».(الجابري، ١٩٩٣، صفحة ١٣)

وإن هذا الفهم الجديد للقرآن الكريم يتعذر تحقيقه دون تحديد طرح العديد من الأسئلة التي طرحت سابقاً وفسح المجال لأسئلة أخرى قد تطرحها اهتمامات عصرنا الفكرية والمنهجية. ذلك لأنه بغير تحديد التفكير في الأسئلة القديمة وطرح أخرى جديدة لن يتأتى لنا الارتفاع بمستوى فهمنا ل"الظاهرة القرآنية" إلى الدرجة التي تجعلنا معاصرين لها وتجعلها معاصرة لنا. (الجابري، ٢٠٠٦، صفحة ١٥)

ولا يفوتنا أن نذكر أن الجابري قد وظف المنهج ذاته الذي وظفه في نقده للعقل العربي، في النقد البنيوي لسور القرآن الكريم وتحليلها في ذاتها، ورصد مختلف العلائق القائمة بين مكوناتها المختلفة، والطرح التاريخي القائم على رصد مسار تكون وتكوين الدعوة المحمدية ومحيطها، وتتبع أسباب نزول القرآن الكريم وتاريخيتها في ترتيب السور ترتيباً جديداً، إضافة إلى الطرح الإيديولوجي الذي ساعد الباحث على تخليص النص القرآني من عوائق البطانة الأيديولوجية.(الجابري، ٢٠٠٦، صفحة ٢٠)

٢. آليات التفسير الواضح للنص الديني عند الجابري وعلاقتها بمسألة التعريف بالقرآن:

لقد حظي القرآن باهتمام واسع لدى جميع دارسي المنظومة الفكرية الإسلامية، إذ حاولوا شرحه وفهمه، واستخراج معانيه وأحكامه وعقائده. وقد سعى كل باحث إلى تناول النص القرآني بالدرس والبحث. واختلفت لذلك طرق تناول القرآن

منذ المراحل الأولى لنشأته وتنوعت تسميات شرح ألفاظه وضبط معانيه وانتقلت من تفسير وتأويل مع كتب الشرح الأولى إلى فهم أو قراءة مع الفكر الديني الحديث.(أمة الله، ٢٠١١، صفحة ٧)

والفكر الديني الحديث سعى بدوره لتأسيس مجموعة من المفاهيم الجديدة المتعلقة بدراسة القرآن وشرح آياته واختلفت لذلك التسميات اختلاف الدراسات والمناهج المعتمدة وتعددت المؤلفات. ومحمد عابد الجابري من بين الذين تطرقوا لهذا الأمر وذلك من خلال كتابه: "مدخل للقرآن الكريم" في جزئه الأول، أما الجزء الثاني فكان بعنوان: "فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول" وهو مقسم إلى أقسام. وسنحاول انطلاقا من هذا الفهم معرفة طريقة تناول الفكر الحديث للنص القرآني وإعادة قراءته على ضوء الواقع المعاش.(أمة الله، ٢٠١١، صفحة ١٠)

ومما سبق قوله نطرح الإشكال التالي: هل التفسير الذي قدمه الجابري يعد تفسيرا بكل مقاييس التفسير المعمول به من طرف العلماء أم أنه قدم مستوى من مستويات الفهم؟ وفيما تتمثل الآليات التفسيرية التي اعتمدها الجابري؟ (أمة الله، ٢٠١١، الصفحات ١٠-١١)

قبل الخوض في آليات التفسير التي اعتمدها الجابري لابد من الإشارة إلى منطلقات هذه القراءة والتي كانت بعنوان: القطع مع الفهم التراثي للقرآن وذلك من خلال خطوتين أساسيتين هما:١- القطيعة مع التفاسير والأيديولوجيات القديمة. ٢- القطيعة مع لوائح الترتيب المعتمدة.

١- القطيعة مع التفاسير والأيديولوجيات القديمة: إن مسألة تدوين القرآن الكريم وخاصة بعد وفاة النبي □ أثارت العديد من الاختلافات بين المسلمين، وكان الاختلاف حول مسألة فهمه وهذا ما يبرره إذا علمنا أن أصحاب الرسول □ الملمين بالتفسير بدأ عددهم في النقصان إضافة إلى اتساع الفترة الزمنية، مما أدى إلى اتساع سلسلة ناقلي الأخبار والرواة وهو ما انعكس على الصيغة الفنية للخبر المروي المتعلق بتفسير الآيات القرآنية وفهم مواقيت نزولها ومبرراتها. (أمة الله، ٢٠١١، صفحة ٢٥)

يتبين لنا مما سبق أنه بسبب الاختلاف الذي حدث بين المسلمين هو ما أدى بالجابري بالبحث لنفسه عن توجه مخالف لهذه التوجهات التفسيرية، وذلك من خلال الاعتماد على ترتيب النزول واتخاذه لمصدرين أساسيين من التفاسير هما: محمد بن جرير الطبري، والآخر للزمخشري.

الجابري بهذا الاختيار الذي قام به يوضح لنا أن المنهج الذي يتبعه يعتمد على التفسير بالمأثور والتفسير اللغوي واختياره لم يكن عشوائي انما كان نتيجة لدراسة فاحصة دقيقة، كذلك بعد الاطلاع على موضوع التفسير الذي تناوله الجابري والتوقف على قراءته التفسيرية والتي توضح القطيعة التي مارسها مع جل التفاسير وهي مرحلة أولى فيما يتعلق بفهمه للقرآن وهو الأمر الذي ذكره في كتابه "نحن والتراث" حيث يقول:« إن ما ندعو إليه هو: التخلي عن الفهم التراثي للتراث، أي التحرر من الرواسب التراثية في عملية فهمنا للتراث...إن القطيعة التي ندعو إليها ليست القطيعة مع التراث بل القطيعة مع نوع من العلاقة مع التراث، القطيعة التي تحولنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث». (الجابري، ١٩٩٣، صفحة ٢١)

٢- القطيعة مع لوائح الترتيب المعتمدة:

يدعوا الجابري في قراءته الحديثة للقرآن إلى القطيعة مع جل التفاسير فقد اعتبرها بمثابة الفهم التراثي للتراث، ولتأكيد هذه القطيعة لابد أيضا من ممارسة القطيعة حتى مع لوائح الترتيب الخاصة بالصور التي اعتمدها المصحف فترة عثمان بن عفان، وتقوم على معيار شكلي هو حسب تدرجها من الأكثر إلى الأقل طولا ويقول في ذلك الجابري:« إن صور القرآن في المصحف مرتبة في الأغلب الأعم حسب تدرجها من الطوال إلى القصار. وهذا الترتيب من الأطول إلى الأقصر هو المنحى العام». (الجابري، ٢٠٠٦، صفحة ٢٣٣)إذا الجابري يؤكد أن قراءة القرآن وفهمه حسب هذا الترتيب ستقدم قراءة مشوهة لا دقيقة لأنها لا تربط بين جميع أجزاء القرآن كمعرفة الحكم الأول من الثاني لتحديد الناسخ له، ونتيجة لهذا رفض التفسير المعتمد في عهد عثمان. إعلان الجابري القطيعة مع لوائح الترتيب المعتمدة يرمي لتقديم تفسير خاص بالقرآن يعتمد فيه على ترتيب اقترحه من خلال العودة إلى جملة من المعايير تسمح لنا بالوصول إلى نص تفسيري واضح بإمكان القارئ المعاصر الاعتماد عليه.

أ–معيار التمييز بين المكي والمدني: إن مسألة التمييز بين المكي والمدني في البدايات الأولى للمسلمين ساعدتهم على تحديد حكم الناسخ والمنسوخ، كذلك قارئ النص القرآني المعاصر مكنته من التعرف على كيفية تفاعل المسلمين الأوائل مع القرآن رغم بعد الفترة الزمنية. فالعلم بالمكي والمدني له فوائد تكمن في معرفة الناسخ من المنسوخ والتمييز بينهما، كذلك معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، والثقة بالقرآن وبوصوله سالما إلينا.(محمود مطلوب، ٢٠٠٤، صفحة ٢٥)

والجابري يرى بأن هذه المعايير التي اعتمدها القدماء غير دقيقة وليست كافية لنبني وفقا لها الحد الفاصل بين المدني والمكي لأن الفترة الزمنية بين زمن النزول وزمن تدوين القرآن بعيدة وهذا ما جعل الأفراد المدونين له غير قادرين على ضبطه يقول الجابري في ذلك:« وهذا الاختلاف الكبير راجع إلى التمييز بين المكي والمدني من السور لم يقع الاهتمام به إلا في المائة الثانية للهجرة، في عصر التدوين، والذين اهتموا به في ذلك العصر كان مستندهم في الأعم الأغلب جملة وقائع أو أمارات جزئية متعارضة لا تسمح باستنتاج يتعدى مجرد الظن والتخمين». (الجابري، ٢٠٠٦، صفحة ٢٣٧)

ب–ضرورة ربط فهمنا للقرآن بوقائع السيرة: إن الجابري لم يكتفي بتقسيم السور إلى مكية ومدنية بل قام أيضا بتقسيم بعض السور إلى وحدات متخذا نفس المعايير كأسس لذلك، ومبرره هو تقديم فهم للقرآن من خلال التساوق التاريخي والسيرة. ولابد لنا من القول أن المنهج الذي اعتمده الجابري في إعادة ترتيب سور القرآن حسب ترتيب النزول هو الاعتماد على المرويات أو المواد التاريخية التي لا يمكن بناء تاريخ من دونها وعلى أسباب النزول بما أنّ آيات السور مرتبطة في كثير من الأحيان بوقائع منفصلة هي أسباب النزول. في هذا السياق يقول الجابري:« سيكون علينا في البداية... إعادة بناء الترتيب الذي تعطيه اللوائح المروية على أساس الأخذ بالاعتبار المرويات التي تتحدث عن تاريخ نزول هذه السورة أو تلك، أو عن مناسبات نزول بعض آياتها سواء وافق ذلك ترتيب اللوائح أو خالفه، هذا فضلا عن أن إعادة النظر في ترتيب النزول، يجب أن تنطلق أولا من الفصل في مسألة المكي والمدني من السور والآيات ...». (الجابري، ٢٠٠٨، صفحة ١٠)

وإن فهم القرآن حسب الجابري، لا يتحقق إلا بتتبع ترتيبه ككتاب، فيه السابق واللاحق، والجابري هنا يستند إلى المقولة الشاطبية في ضرورة إعادة ترتيب سور القرآن، إذ يقول الشاطبي:« إن المدني في السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل، وإلا لم يصح والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر في كل واحد منهما مبني على متقدّمه». (الذيب، ٢٠١٧–

٢٠١٨، صفحة ١٩٨)ومعنى هذا أن فهم القرآن لن يتحقق إلا بإعادة ترتيب سوره حسب مناسبات النزول التاريخية. إذا الجابري هنا يحاول الاتكاء على كلام الشاطبي لتأكيد أهمية مراعاة ترتيب النزول، في فهم القرآن الكريم، الذي اختار له اسم "الكتاب"، وكأن هناك فرق بينهما !، وما نفهمه من كلام الشاطبي، هو أهمية الاستعانة بترتيب النزول في الفهم، لا بالضرورة جعله منهجا. لا يلزم منه بالضرورة، وهنا نلاحظ تناقض الجابري في التعامل مع التراث، فالجابري الذي استخف بالتراث، والذي لم يجد فيه تعريفا ولا تفسيرا للقرآن يقنعه، هو نفسه الذي يوظف التراث لتبرير رؤاه، ومنه فهذا النوع من التوظيف لا يخلو من الإيديولوجية، والمذهبية، التي ما فتئ الجابري يدعي رفضها.

وباختصار المنهج الذي اتبعه الجابري في تفسيره للقرآن الكريم هو:

١- إتباع ترتيب السور القرآنية الكريمة حسب نزولها كما أشرنا سابقا؛ لا حسب ترتيبها في المصحف.

٢- اعتماد ما أسماه ب: "علامات الفهم والإفهام"، فقد ادعى الجابري أن فهم القرآن متلو، لا يحتاج إلا إلى مقرئ يجيد التلاوة، في حين أنه لابد لفهم القرآن المكتوب من معرفة ترتيب النزول الزمني، والاستعانة بعلامات الفهم والإفهام، وهي ذاتها علامات الترقيم المستحدثة في الكتابة الحديثة. (الجابري، ٢٠٠٨، صفحة ١٣)

٣- تناول سور القرآن بالتفسير وفق خطوات ذكرها كالآتي: (الجابري، ٢٠٠٨، الصفحات ١٣-١٤)

الجابري قسم مادته التفسيرية -كما سماها- إلى ثلاث أقسام:

- تقديم يعرض فيه أسباب النزول.
- هوامش يضع فيه شروحا إضافية.
- تعليق وفيه خلاصة عن أهم القضايا التي تعرضت لها السورة الكريمة.

وخرجت مادته في ثلاث أجزاء هي: (الجابري، ٢٠٠٨، صفحة ١٦)

جعل الجزء الأول والثاني للقرآن المكي، والجزء الثالث للقرآن المدني.

٣. رؤية نقدية للقراءة الحداثية للنص للقرآني عند الجابري

يعد محمد عابد الجابري من المهتمين بقراءة النص القرآني حيث أفرزت قراءته العديد من ردود الأفعال والتي تنوعت بين مؤيدين ومنتقدين. والسؤال الذي يطرح هو ما هي أهم المزالق التي وقع فيها الجابري من خلال قراءته التفسيرية للنص الديني(القرآن)؟

١- الآراء المؤيدة لقراءة محمد عابد الجابري للنص القرآني: الجابري من المفكرين الذين سعوا لتخليص الفكر العربي من الأزمة التي يقبع فيها، فالجابري في نظر العديد من القراء والباحثين المفكر الذي سعى لإعادة البريق للتفكير العقلاني على مستوى الفكر العربي حيث يقول محمد علي الكبسي:« لقد اعتمد الجابري تأويل التراث ماضيا وحاضرا لاكتشاف ثوابته ومتغيراته كشفا يجعل من السهل مد جسور الحوار بين النص والناقد لا لقراءة ما يعلنه بل لقراءة ما لا يعلنه». (الكبسي، ٢٠٠٧، صفحة ١٥٢)

هذا القول يؤكد أن الجابري كان يعي حقيقة الواقع الذي تعيشه أمته، فمن الواضح أن الهدف الأساسي الذي كان يشغل تفكير الجابري هو إصلاح علاقتنا بالماضي والسبيل لتحقيق ذلك كان من خلال العودة إلى الماضي مستخدمين آلية

النقد العقلي يقول علي رحمومة سحبون:« من المعلوم أن الجابري انشغل مثل غيره من المفكرين العرب المعاصرين بهموم أمته التي ترزح تحت نير التبعية الفكرية والتجزئة السياسية، وهذا الانشغال دفعه لأن ينفعل بما يجري في الساحة العربية من أطروحات فكرية تتصل بمشكلة النهضة». (رحمومة، ٢٠٠٧، صفحة ٨٦)

ويؤكد علي حرب على أن الجابري من خلال قراءته النقدية للنص القرآني يركز على نقد الخطابات التي نشأت وانتظمت حول نص الوحي والحدث القرآني يقول علي حرب:« المهم عند الجابري العدة المنهجية التي يوظفها ويحسن استثمارها. المهم ليس المعارف التي ينتجها بل قدرته على الإنتاج المعرفي».(حرب، ٢٠٠٥، صفحة ١١٧)

كذلك من الإيجابيات التي تنسب للجابري المساهمة في إغناء تراثه ونشر المعرفة العلمية وذلك من خلال الدفع بالمدارس لمسايرة تطور الفكر العلمي يقول في ذلك صايم عبد الحكيم:« دفع بمدارسنا وجامعاتنا إلى مسايرة تطور الفكر العلمي وملاحقة خط العلم والمساهمة في اغنائه وإثرائه من جهة والعمل على نشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق من جهة ثانية اعتمد على التحليل الإبستيمولوجي». (صايم، ٢٠١١، صفحة ١٥٤)

٢- الآراء الناقدة لقراءة محمد عابد الجابري للنص القرآني:

من بين النقاط التي يؤاخذ عليها الجابري القاعدة التي اعتمد عليها وهي: "جعل المقروء معاصرا لنا ومعاصرا لنفسه "وهذا الأمر يعني جعل أي محاولة لإصلاح واقعنا ترتبط بضرورة فهمنا لماضينا وإصلاحه والانتقاد الموجه للجابري فيما يتعلق بهذه القاعدة يرتبط بأنه من تحقيق هذا المطلب قام بخلخلة الثوابت التي يقوم عليها الفكر الإسلامي بدل القيام بتصحيح الأخطاء ومراجعتها الأمر الذي أثار النقاد وذلك من خلال القول التالي:« إلا أننا نقول إن إصلاح فهمنا لماضينا لا ينبغي أن يكون خلخلة لثوابت الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية، بل يجب أن يكون تصحيحا لأخطاء، وتوجيها نحو مستقبل أفضل لهذا الفكر ولهذه العلوم، وأما ما أجمع عليه العلماء وكان حقائق ثابتة فلا سبيل إلى نقده أو خلخلته كما أراد المؤلف». (البكاري و الصديق، ٢٠٠٩، صفحة ٢٢)

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الجابري من خلال القراءة التي قدمها للتراث والنص القرآني وقع في الانتقائية مثله مثل باقي الدارسين، فقد قام بتوظيف التراث والنص القرآني توظيفا أيديولوجيا وبهذا الجابري ينتصر لتوجهه العقلاني دون الأخذ بعين الاعتبار أنه نص نقلي وذو خصوصية مقدسة. يقول في ذلك قاسم شعيب:« إن قراءة الجابري هي الأخرى انتقائية تختار ما يناسبها من المناهج والتراث وما يتناسب معها من مرجعيات لتدعم آرائها أليست ذات إيديولوجية تنتصر لما هو عقلي ولو كان استشراقيا على حساب ما هو نقلي ولو كان توفيقيا ومأثورا ؟». (شعيب، ٢٠٠٧، صفحة ٤٥)

ونجد المفكر جورج طرابيشي صاحب كتاب" نقد نقد العقل العربي" خصص نقدا للقراءة التي قدمها الجابري من بينها وقوعه في التناقض وذلك من خلال استدلال الجابري بالغائب على الشاهد في حين من المفروض الاستدلال بالشاهد على الغائب وهذا ما يتنافى مع قواعد المنطق الاستدلالي. (طرابيشي، ٢٠٠٢، صفحة ٢٧)

كذلك ما يؤخذ على تفسير الجابري للقرآن الكريم وفق ترتيب النزول ما يلي:- كونه استدراكا على الله تعالى، على القول بتوقيفية الترتيب، وهو الأرجح، وفيه مخالفة لما جرى عليه العمل عند جمهور الأمة، على فرض عدم التوقيفية. (عطا حسن، ٢٠٢١، صفحة ٨ وما بعدها)

– الغاية التي ترجى من تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول يمكن تحقيقها بالدراسات القرآنية الموضوعية، (التي تتناول موضوعات مستقلة من القرآن الكريم)، وأما تفسير القرآن الكريم فينبغي فيه إتباع ترتيب المصحف، وبهذا يمكن الجمع بين المنهجين، وتحقيق المنافع، وكذلك تجنب الانزلاقات. (الدقور، ٢٠٠٨، صفحة ٢٦)

–كما أن المعايير التي يعتمدها فيما يتعلق بتبرير ترتيب السور غير كافية، فهذا الأمر لا محالة سوف يحول بين الفهم الواضح للنص القرآني لأنه لا يقوم بالتفكيك الفني للسور كما يجب ووفقا لما تقتضيه عملية الفهم الفني للنص، وإنما يكتفي بشرح بعض الكلمات بين قوسين أمام اللفظ المعني دون تقديم مصدر لهذا الشرح ولا حتى سبب اختياره لهذا الفهم. (أمة الله، ٢٠١١، صفحة ١٠٥)

ومما سبق يمكننا القول بأن محمد عابد الجابري مفكر ذو اطلاع واسع على التراث العربي الإسلامي، إلا أن ذلك لم يجنبه الوقوع في زلات خطيرة؛ بعضها في حق القرآن الكريم، وبعضها الآخر في حق الأنبياء والرسل... ذلك أن الاستفادة من التراث تحتاج روحا خاصة في تلقيه، والتعامل معه، نظرة متزنة، تبتعد كليا عن التقديس، وتنأى تماما عن الازدراء، نظرة تقدير لا تقديس ولا احتقار، ولئن استمات الجابري في التزهيد في التراث، فقد وظفه في التأسيس لرؤيته التشكيكية في القرآن.

الخاتمة:

في الأخير يمكننا القول بأن العقلية العربية والإسلامية في حاجة ماسة إلى تحقيق وعي علمي بالحضارة الحديثة بأصولها، و أسسها، وانجازاتها، لابد من تحقيق نهضة فكرية للخروج بالعقل العربي من الأزمة والركود الذي يقبع فيه، ولا تتحقق هذه النهضة إلا من خلال فتح المجال أمام تعدد القراءات لإثراء الرصيد التراثي وذلك من خلال عودة العقل لمواجهة مشاكل الواقع التي يعانيها المجتمع العربي الإسلامي اليوم، وبناء على هذا لابد من أن يستنفذ المفسر أدواته العلمية في الكشف عن الدلالات التي يتجاوزها إلى كشف الممكن والمحتمل بالنفاذ إلى أعماق النص، وكشف أسراره الجديدة في إطار الواقع الحي المتطور وهي مهمة صعبة وتظل مشروعا لا يمكن استيعابه إلا من طرف الفلسفة كونها خطاب شمولي يسعى لإحداث التقارب. ومن جملة الاستنتاجات التي يمكن الخروج بها من خلال دراستنا المتعلقة بالقراءة التفسيرية التي قام بها محمد عابد الجابري للنص القرآني أن الفلسفة ممارسة متميزة عن الدين وعلومه، وخاصة ما يتعلق بمسألة تعاملها مع القرآن وذلك باعتبارها نظرة عقلانية عميقة متحررة من التعصب المذهبي والإيديولوجي، فالفلسفة أوسع وأشمل في طرح قضاياها وتقدم الطرق الكفيلة كالمنهاج والآليات لفهم القرآن خاصة اعتمادها على الروح النقدية ورفضها للتقليد. كما أن قراءة الجابري للنص القرآني تسعي لإبراز جملة من العناصر من بينها:

– سعي الجابري لتحقيق إسهام فلسفي حقيقي يكون على شكل مقترحات وحلول للقضايا الإنسانية المطروحة في ضوء تطورات الحياة المعاصرة ومكتسبات المعرفة الإنسانية، والتحديات الجديدة في القرن العشرين كالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والإسلاموفوبيا بناء على استثمار الفكر الفلسفي والعقلاني في قراءة القرآن الكريم.

– إن عملية التجديد حسب الجابري تكون من داخل النص وذلك بالعودة إلى مبدأ تفسير النص بالنص(القرآن يفسر بعضه بعضا)، كما عمد الجابري لجعل القرآن معاصرا لنا ولنفسه، ولنتمكن من احتوائه لابد من ممارسة ما يعرف بالقطيعة الابستيمولوجية مع جل الخطابات اللاعقلانية .

– إن قراءة الجابري للقرآن لا تسعى لتقديم تفسير؛ بل هدفها التعريف بالقرآن بناء على موضوعاته الخاصة، وقد قام الجابري باستحضار التاريخ واعتماد الموضوعية والعقلانية، واعتمد على المنطلقات المنهجية التالية: ١– التعامل مع القرآن بحسب ترتيب النزول. ٢– التأكيد على وحدة النص القرآني.٣– عدم فصل الدعوة المحمدية عن السياسة والتاريخ.

– تهدف القراءة الحديثة للنص الديني القرآن إلى زحزحة ما هو ثابت لدى المسلمين منذ قرون وتقويض ما هو مقدس، وأنسنة كل ما هو إلهي، وتأريخ المتعالي، والقول بنسبية المطلق، فالنص الإسلامي القرآني كنص الأديان الوثنية الوضعية الأخرى.

– كذلك قول الجابري بالتاريخية ونفي غيبية النص القرآني يستدعي التشكيك فيه، بالإضافة إلى فكرة أخرى وهي اعتماده على مناهج غربية من أجل قراءة الظاهرة القرآنية.

ويمكن ملاحظة تجربة الجابري في التعامل مع القرآن من خلال الملاحظات التالية:

أولا — أغْرى الجابري الناس بتجاوز التراث، من أجل قراءة معاصرة للقرآن الكريم، غير أنه أعرض عن بعض التراث، ووقع أسيرا لبعضه الآخر، وهو لم يقدم جديدا مفيدا، لا في تعريف القرآن، ولا في تفسيره، لا في المحتوى ولا في المصطلحات، ولا في المنهج، ولا حتى في عنوان كتابه:"مدخل إلى القرآن الكريم".

ثانيا– رغم عدم إتيان الجابري بالجديد المفيد؛ الذي وعد به، اكتفى الجابري باسترجاع أسئلة غيره، وجمع غريب الأقوال والشبهات المثارة حول القرآن الكريم، المنشورة في التراث الإسلامي، وفي مؤلفات المستشرقين.

ثالثا– تجربة الجابري في التعامل مع القرآن تجربة، حذرة، مراوغة، ماكرة، حاولت الظهور بمظهر المقدس للقرآن الكريم، لكنها تبنت الرؤية الاستشراقية، منهجا، ومقصدا، ومنطلقا، ومصطلحا.

رابعا– تأكيد كون القرآن الكريم متاحا ومفتوحا، للقراءة، والتدبر، لكن لابد من امتلاك الأدوات اللازمة، لذلك.

خامسا– إن إيمان الجابري بوحيّية القرآن الكريم، ثم إنكاره حفظه، وإعجازه، وتواتره، وهيمنته، إيمان لا يختلف كثيرا عن الكفر، وما ادعاه في حق القرآن، من جواز النقص والتغيير، يفضي إلى التشكيك به وحياً إِلَهًيا، والقول بتاريخية القرآن، هو نفس مشروع محمد أركون، ومن قبلها فكرة المدرسة الاستشراقية، لكن بصيغة جديدة، لكنها غير خافية.

ومما سبق يمكننا القول أنه لابد لمن يتصدى لتحليل القرآن الكريم، أن يمتلك الأدوات اللازمة، حماية للعقل من التخبط والضلال، كذلك لابد لنا من الإشارة إلى أن البديل للقرآءة الحداثية للقرآن الكريم هو التأسيس الشرعي لتأصيل أصول الاستدلال في الإسلام، فهذا التأصيل للاستدلال والمعرفة، بالأصول الأربعة؛ هو الذي لا يتصور غيره عند من يؤمن بحقيقة حصول الوحي الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم وبعصمته في تبليغ ما أوحي إليه. وهو الذي يلزم من يؤمن بوجود حقائق خارجية مستقلة عن الذات والواقع المادي التاريخي. ومن يشكك فيه ممن يؤمن بالحقائق الخارجية فسيؤول به الأمر إما إلى التناقض، وإما إلى إنكار مبدأ القول بالحقائق الخارجية الثابتة.

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر

١. محمد عابد الجابري. (١٩٩١). *التراث والحداثة دراسات...ومناقشات* (المجلد ط١). لبنان: مركز دراسات الوحدة.

٢. محمد عابد الجابري. (١٩٩٢). *فكر ابن خلدون العصبية والدولة(معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي)* (المجلد ط٥). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

٣. محمد عابد الجابري. (١٩٩٣). *نحن والتراث(قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي)* (المجلد ط٦). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

٤. محمد عابد الجابري. (١٩٩٤). *فكر ابن خلدون العصبية والدولة(معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي)* (المجلد ط٦). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربي.

٥. محمد عابد الجابري. (١٩٩٨). *ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص* (المجلد ط١). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

٦. محمد عابد الجابري. (٢٠٠٦). *مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن، ج١*. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

٧. محمد عابد الجابري. (٢٠٠٨). *فهم القرآن الحكيم-التفسير الواضح حسب ترتيب النزول-ج١* (المجلد ط١). المغرب: دار النشر المغربية.

٨. محمد عابد الجابري. (٢٠٠٩). *تكوين العقل العربي* (المجلد ط١٠). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

قائمة المراجع:

٩. أمال بن علي . (٢٠١٧). ابستيمولوجيا غاستون باشلار وأبعادها في الفكر الفلسفي المعاصر(مذكرة ماستر). (إشراف عبد الحليم بوهلال، المحرر) كلية العلوم الاجتماعية والانسانية-قسم علم النفس والفلسفة، الجلفة: جامعة زيان عاشور.

١٠. جوادي أمة الله. (٢٠١١). *في الفكرر الديني الحديث محمد عابد الجابري أنموذجا* (المجلد ط١). تونس: الدار التونسية للكتاب.

١١. جورج طرابيشي. (٢٠٠٢). *نقد نقد العقل العربي(نظرية العقل) ج١* (المجلد ط١). لبنان: دار الساقي.

١٢. حسن شعبان. (١٩٩٣). *برونشفيك وباشلار-بين العلم والفلسفة-* (المجلد ط١). دب: دار التنوير.

١٣. سامي عطا حسن. (١٩ ١٠، ٢٠٢١). *الاتجاه العلماني في علوم القرآن الكريم، الجابري أنموذجا*. تم الاسترداد من .http://shamela.ws/rep/book/٤٨٥٩

١٤. سحبون علي رحومة. (٢٠٠٧). *إشكالية التراث والحداثة في الفكر العربي المعاصر(بين محمد عابد الجابري وحسن حنفي أنموذجا) دراسة تحليلية مقارنة*. مصر: منشأة المعارف.

١٥. سليمان محمد الدقور. (٢٠٠٨). منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، قراءة في كتاب الجابري" فهم القرآن الحكيم". كلية الشريعة، الأردن: الجامعة الأردنية.

١٦. عبد الحكيم صابم. (٢٠١١). *هواجس فلسفية في التراث والفكر المعاصر*. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة.

١٧. عبد السلام البكاري، و بوعلام الصديق. (٢٠٠٩). *الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عابد الجابري(رؤية نقدية)* (المجلد ط١). الجزائر: منشورات الاختلاف.

١٨. عبد السلام بن عبد العالي. (٢٠١١). *سياسة التراث(دراسات في أعمال محمد عابد الجابري)* (المجلد ط١). المغرب: دار توبقال.

١٩. عبد المجيد محمود مطلوب. (٢٠٠٤). *مباحث في علوم القرآن والحديث*. مصر: مؤسسة مختار.

٢٠. علي حرب. (٢٠٠٥). *نقد النص(النص والحقيقة)* (المجلد ط٤). المغرب: المركز الثقافي العربي.

٢١. فتيحة الذيب. (٢٠١٧-٢٠١٨). في آليات فهم الخطاب الديني عند محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم- أنموذجا(أطروحة دكتوراه علوم). (عبد الغني بارة، المحرر) كلية الآداب واللغات، سطيف: جامعة لمين دباغين.

٢٢. قاسم شعيب. (٢٠٠٧). *تحرير العقل الإسلامي*. المغرب: المركز الثقافي العربي.

٢٣. محمد إكين، إبراهيم بورشاشن، و محمد جكيب. (٢٠١٥). *ورشة علمية حول كتاب مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عابد الجابري*. دب: مؤسسة دراسات وأبحاث.

٢٤. محمد الشيخ. (٢٠١١). *محمد عابد الجابري مسارات مفكر* (المجلد ط١). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

٢٥. محمد علي الكبسي. (٢٠٠٧). *قراءات في الفكر الفلسفي المعاصر* (المجلد ط٢). سوريا: دار الفرقد.

٢٦. محمد وقيدي. (١٩٨٠). *فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار* (المجلد ط١). بيروت: دار الطليعة.

٢٧. مصطفى الحسن. (٢٠١١). *موجز في طبيعة النص القرآني* (المجلد ط١). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.